الفصل السادس

الأوجاع في الغربة

أوجاع الغربة عند السياب :

رسم لنا الشاعر الرائد معاناته وأوجاعه التي زامنته وهو في غربته الأزلية التي أدمت فؤاده المجروح لفراق أهله وذويه ووطنه العزيز الذي لا ينفك أن تراه ظاهراً في جل قصائده وبكائياته التي بقيت خالدة رغم رحيله المبكر عن هذه الدنيا غريباً !

يرنو بعين الرحمة إلى الله تعالى أن ينظر إليه وهو عاكف بمرضه وغربته، يواصل الحمد بلهجة صوفية تفتت القلوب :

((**لك الحمد مهما استطال البلاء ،**

ومهما استبد الألم،

لك الحمد أن الرزايا عطاء ،

وأن المصيبات بعض عطاء !))

يهوي الشاعر راكعاً على فراش المرض ماثلاً أمام الرب الجليل أن يستزيد البلاء والألم، لأن هذا الجسد وهذا الإنسان ما هو إلا من **عطاء الرب** :

((**وأن الجراح هدايا الحبيب ،**

أضم إلى الصدر باقاتها ،

هداياك في خافقي لا تغيب ،

هداياك مقبولة هاتها ،

وأن مست النار حر الجبين ،

توهمتها قبلة منك مجبولة

من لهيب !))

ثم تغيب روح السياب بعيداً إلى وطنه وأهله يناجي وفيقة وشباكها، وفيقة التي فارقته ولم تسأل عنه مذ ْ رحل وغاب عن وجودها، وشباكها التي طالما سكب عليه السياب أغلى قصائده وعصارة روحه المعذبة، فوثب يعاتبه عتاب من أدمى فؤاده البعد والفراق واللهفة إليها، فما دام هذا الفراق قائماً الآن بينه وبين من يحب ولا يجد له من سبيل، إذن لا بد من اللجوء إلى الله ليستعين به **لأنه مولاه** :

جميل هو السهد أرعى سماك ،

بعيني حتى تغيب النجوم ،

ويلمس شباك داري

سناك !))

فما أسهل الاتصال بالله يا ترى، أليس هو القائل ((أدعوني أستجب لكم فها أنا العبد المظلوم ألمس شباك الله وأتوسل إليه أن يعينني على بلوى هذه الغربة أولاً وعلى مرضي ثانياً، وإني لأراه قريباً مني فيما أرى شباكك بعيدا !

فما أبعد الإنسان عن الإنسان وما أبعدك يا وفيقة عني الآن، ويا ليتني أبحر إليك بشراعي الذي مزقته الرياح !

((أطلي فشباكك الأزرق

سماء تجوع،

تبينته من خلال الدموع ،

كأني بي أرتجف الزورق ،

أذا أمشق عن وجهك الأسمر

كما أنشق عن عشتروت المحار ،

وسارت من الرغو في مئزر ،

ففي الشياطين اخضرار ،

وفي المرفأ المغلق

تصلى البحار !))

هذا الألم الذي يعاني من الشاعر نقله إلى حدود القصوى في التفكير في اللاحدود والغوص في المحسوسات التي هي بعيدة عن النفكير والتدليل عن الواقع، فهو الآن فيما وراء الطبيعة، في موكب التقصي والغوص في رحمة الله الواسعة، في صلاة الشواطيء على اخضرارها، صلاة البحار على المرافيء المُغلقة، وصلاة شباك وفيقة الأخضر على أصيل النخيل المرتعش من هبوب النسيم الذي يغطي سماء جيكور الحبيبة ويبث نداه على نهرها الصغير بويب، فهو طائر غريب في محراب غربته يعالج سكرات المرض والموت من جهة، والغربة من جهة أخرى :

((كأني طائر بحر غريب ،

طوى البحر عند المغيب ،

وطاف بشباكك الأزرق ،

يريد الالتجاء إليك ،

من الليل يريد على جانبيه

فلا تفتحي ولو كان مابيننا

محض باب

لألقيت نفسي لديك ،

وحدقت في ناظريك !))

ثم ينثني الشاعر ملهوفاً يناغي الحياة المتمثلة بوفيقة وشباكها مما أحاله إلى أسطورة يبكي عليه كلما أراد أن يهز أغصان شجرة الإبداع لديه، ويمثل الحاضر على نمط الأسطورة المستحيلة، فهو يغوص في متناهى الكلمات والصور، ليصور لنا حالات الإنسان أكثر تحليلاً وإبداعاً للمتلقي الذي لا يخفى عليه الأمر، مؤكداً انجرافه إلى واقع التصوف الذي فُرض عليه وعلى شعره وهو يعاني ألمه وغربته التي كلما ألمت به أوجاعها رجع إلى تصوفه والتمسك بالله لعله يحصل على لمسة حنان، لكنه رغم هذا كله يرجع إلى وفيقة وشباكها مناغياً إياه ناسياً تلك الأوجاع التي أصبحت لا تفارقه كالطفل لثدي أمه عندما يشتد به الجوع !

والشاعر يشتد به الحنين والشوق إلى أهله ووطنه وولده غيلان متوسلاً بالله تعالى أن يلهمه الصبر والانقطاع إليه، يسرح مع نفسه رغم ما يدور حوله من أغاني الأفراح عيد الميلاد في مدينة الضباب لندن، إلا أنه يتيه بفكر شارد نحو أهله ووطنه ليسمع ولده غيلان وهو يناغي أمه لما ألمه شوق أبيه البعيد عنه :

((أسمع غيلان يناديك من الظلام ،

من نومة اليتيم في خرائب الفجر ،

سمعت كيف دق بابنا القدر،

فارتعشت على ارتجاف قرعه ضلوع

ورقرقت دموع ،

فاختلس المسافر الوداع

وانحدر ،

إقبال أن في دمي لوجهك انتظار ،

وفي يدي دم ،

إليك شدة الحنين ،

ليتك تقبلين !))

ويبقى السياب يهتزُ مرتعشاً بجسده النحيل صارخاً من ألمه وأوجاع غربته يناغي ربه تارة والإنسان وشباك وفيقة والقدر ومرضه تارة أخرى، حيث ينفد صبر أيوب الإنسان الشاعر ويدع:

((يا رب أيوب قد أعيا به الداء ،

في غربة دونما مال ولا سكن

يدعوك في الدجن .. !))

وهكذا ترعرعت أوجاع شاعرنا السياب في جميع أوصاله المرتعشة؛ كنخيل جيكور وهي تجابه الريح العاتية قاصاً أشباح الحنين والشوق بالخوف الذي داهمه وصوت الأموات الذي يناديه وخيال المقبرة الذي ما ينفك يداعبه في كل حين، وصوت ولده يقرع في أذنيه، فيصرخ الشاعر مستغيثاً من هذه الأشباح المرعبة التي تداهمه وتداعب خياله في الغربة :

((يا رب يا ليت لي إلى وطني ،

عود لتلمسني بالشمس أجواء ،

منها تنفست روحي طينها بدني ،

وماؤها الدم في الأعراق ينحدر ،

يا ليتني بين من في تربها قبروا !!))

وملَّ السياب أوجاع غربته التي باتت كمرضه يئن منها ويذكرها في كل صفناته وسكناته مؤرخاً لها في كل ما كتب لنا من إبداعه وسكبه في قدح من دوائه ليصوره لنا في آلته الفونغرافية بحس ناطق مرهف وفنان قدير يرسم الحياة وأوجاع الغربة كلوحة المونيليزا التي بقيت خالدة عبر الدهور !!

أوجاع الغربة عند الشاعر مصطفى جمال الدين :

والشاعر مصطفى جمال الدين واحد من هذا الرهط الذي تحمل الغربة وأصبحت شعار ملاحمه الشعرية التي بقيت شاهدة على تصوير الغربة وأوجاعه، تذكرنا في كل حين ما تمليه وما تقيده لنا في صفحات التأريخ من ألم ووجع وتذكر وحساسية تؤبن مراثي الشاعر التي يؤرخها لنا في هذه الصور المبدعة الخالدة على مر الدهور !

إذْ ما يوصله التفجع على حال العراق وشعبه الذي التهمته نار الطائفية والنعرة الدينية والسيطرة البعثية على رقاب الشعب المظلوم !

((يا لبؤس العراق .. ما سار في لحل..

به إلاَ وشوط للوراء))

وهنا يتفجع لبلده الذي يرى فيه كل شعوب العالم تتقدم في مســـاعيها وصـــناعاتها وثقافاتها إلاَ بلده الذي أكلته نار الجهل والصراع البعثي الذي طغى على كل شيء فيه !!

فمعاناته يريد أن يوصلها إلى أذهان العرب جميعا حتى لا يبقى شيئ خاف من هـــذه الأعمال الخبيثة التي أوصلت العراق إلى الدرك الأسفل في الركب العربي بعد أن كـــان في الصدارة بينهم !!

مؤكداً على أن الذي يحكم العراق لا يمكن أن يكون عربياً ولا من أصل عربي، بدليل هذه الأعمال التي تدل على محو كل العادات العربية وقمع أصالتها فيقول :

((كيف جاءت بنو تميم من الهند

وهلَت من مكة التركمان))

وأكثر ما يبرز من تفجع الشاعر على بلده العراق وشعبه ويألم عليه هو ما يرى موقف بعض الفصائل من المعارضة العراقية التي هجرت العراق إلى بلدان الغرب وبقيت هناك في الأمان وهي في منأى من الأحداث الدامية التي يعملها صدام ضد الشعب المظلوم :

((قد نجوتم والأهل صرعى وبعث ..

رتم وقد شدهَم الحتف نطاقُ

وقصارى ما تأملون تصاريحٌ

سمانٌ تلوكها الأشداقُ

وحوارٌ مضى وآخر يأتي

واجتماعٌ عليهما وافتراقُ

ثم لا شيء غير إننا قطيعٌ

باعه المترفون منا وساقوا))

وتفجع الشاعر مصطفى جمال الدين على بلده وأوجاعه التي تؤلمه والتي يطرحها ويتفجع فيها محاولاً التركيز على أمجاد الماضي وقرينه في الحاضر، لذا نراه يتساءل بلسان أبناء الأمة اليوم من قصيدة (القمة الصاعدة) :

((يا لهول الذكرى أنحن الصدى القا ..

هر منها أم الصدى المقهورُ))

وقوله في القصية الأخرى (الغدير):

((يا لأمجادنا نحن بقايا ال ..

سيف منها أم غمده المكسورُ))

وقوله في القصيدة (شهيد الفداء) :

((يا لأحلامنا الثكالى أهذا

الكالحُ الوجه فجرنا الموعودُ))

هذا التفجع الذي يورده الشاعر هنا في قصائده هذه ما هو إلا مقارنة الماضي بالحاضر وتذكير الأمة العربية بتلك الأمجاد التي حكمت بها العالم أجمع، واليوم تراه يناجي الصدى المقهور، بقايا السيف المكسور، الوجه الكالح الذي غطاه الجبن والخذلان، وهذه كلها إضاعة الأمة لأمجادها التليدة التي بقيت خالدة على صفحات التأريخ لا غير تحركها شجون الأطياف وتتألم لذكراها الأعلام اللائحة !!

فمهما يكون الاغتراب وأسبابه وما يفرضه على المغترب من آلام وتفجع ومآس وعذاب، فإن أوجاعه تبقى هي الهاجس الذي يؤثر في نفسية الشاعر خاصة والإنسان بصورة عامة، لأن الغريب في عالم آخر غير عالمه مليء بالتأملات والأخيلة التي تغني الأبداع في الشعر والعمل الأدبي الآخر !

وحالة الاغتراب وما يؤثره من أوجاع في نفسية الإنسان ناتجة عن الشعور والحرمان والشوق الذي يحس به المغترب تجاه وطنه وأهله وشعبه وبالتالي ينطلق إلى عالم التأمل الذي يرافقه الألم الذي يحرك به دوافع الإبداع الذي نراه أمامنا !

والشاعر مصطفى جمال الدين واحد من هذا الرعيل الذي عانى التشرد والحرمان والبعد القسري عن وطنه وشعبه، وواحد من الأدباء الذين أثر الأغتراب في شعرهم وعملهم الأدبي وبقي ظاهرة فيه لما نلمسها من أوجاع دالة على الظلم الذي ناله شعبه في العراق وتكاتف بعض الأنظمة المأجورة معهم لمساندة هذا الحكم الطائفي الظالم !

وتستمر بشاعرنا الغربة والتوجع إلى الحد الذي يوصي بعض معارفه الذين عاصرهم هناك في غربته، أن تكتب على ناصية قبره الغريب هو الآخر، في مقبرة الغرباء في بلد المنفى سوريا التي أحبته وأحبها وتغنى بها وبأنهارها وجبالها وزهورها .

جزء من قصيدته الخالدة ((من أمس الأمة إلى غدها)) :

((يا رملة النجف الشريف تذكري

ظمأ العيون ففي يديك الوردُ

حنتَ فكان لها بذكرك مسرحٌ

وشكت فكان لها برملك أثمدُ))

وهكذا ظل الشاعر يرسم معاناته وأوجاعه بقصائده التي بقيت خالدة إلى يومنا هـــذا وإلى ما شاء الله تعالى !!

أوجاع الغربة عند الجواهري :

الغربة آتون نار يكوي الضلوع، لا بل مرجلٌ تنصهر به القلوب كلما اشتد بها الحنين إلى الأهل والوطن، فالحنين يطير بالشاعر في آفاق الشوق ويختلج الأحاسيس التي تعتملُ بين جانبيه وتخفق بجوانحه، ثم لا تبرح أن تهزه هزاً عنيفاً لا يقدر عليه إلا أن يجاريه بهـــذه الروائع الخالدة، وبهذا الإحساس الذي يسطره الشاعر لهذا الإبداع، وإلا أن يندفع ضـــمن تيارات الهواء التي تدفع الطواحين كما في قول **الشاعر** :

((تهزني فأجاريها فتدفعني

كالريح تعجل في دفع الطواحين))

نعم إنه يسترسل في هذه اللوعة والحزن والغربة التي تلفه بعيداً عن وطنه، حيث يصف لنا تلك المعاناة والتفجع الذي يتمخض به لخلط تلك الصور التي يرسمها لنـــا مـــع دمـــه ولحمه، أي أن هذه الكلمات التي نقرأها في هذه الروائع ما هي إلا من بقايا دمٍ ولحـــم هذا الجسد النحيل لشاعرنا الخالد !

والشاعر دائماً يذهب بعيداً في الغوص بتفسير الغربة التي تحيل هذه الأجساد إلى أشباح تطير كالريش في مهب الرياح، ثم تهوي بعيداً في أصقاع الغربـــة، بعيـــدة عـــن الأهـــل والأوطان، ويشبه لنا الحياة هناك أشبه بالعدم والموت، ويتمنى لو تطير به هذه الأحـــلام الذي تراوده إلى شطآن دجلته، ليطفيء في لججها نار التوجع وكأنه ومض من ومضـــات الشك الذي يغوص في لجة الغيب فيقول :

يا دجلة الخير هل أبصرت بارقةً

ألقت بلمحٍ على شطيك مضنونُ

تلكم هي العمر ومضٌ من سني عدم

ينصبُ في عدم في الغيب مكنونُ

وهكذا تختلط هواجسه في غربته مع ما يضمر من أحاسيس تجاه وطنه وشعبه ويسترسل في الحزن والشوق والألم لبغداد ودجلته ويمزج المعاني التي يثبتها بهذه الرائعة خالدة

ويصبها لنا في كأسه السلسبيل، لما يصفه من معاناته وأحلامه المرعبة التي **تقضَ منامه:**

يا دجلة الخير يا من ظلَ طائفها

عن كل ما جلَت الأحلام يلهيني

لو تعلمين بأطيافي ووحشتها

وددت مثلي لو أن النوم يجفوني

أحس يقضان أطرافي أعالجها

مما تحرقت في نومي يأتوني

ويؤكد مخاطباً دجلة العزيزة ويخبرها أن بعده لها أصبح كمرجلٍ من نار يكوي جسده النحيل الذي أسقمه فراقها، وأن هذه الكوابيس المرعبة ما تزال تؤذي الشاعر وهو في منامه أو إذا كان يقظان !

ثم يتصاعد بالشاعر الألم واللوعة ويضجُ صارخًا بحزن كبير، وينفجر على ما عملته هذه الغربة واللوعة به :

((ويا ضجيعي كرى أعمى يلفهما

لفَ الحبيبين في مطمورة دون

حسبي وحسبكم من فرقة وجوى

بلاعجٍ ضرمٍ كالجمرِ يكويني

لم أعد أبواب ستين وأحسبني

مما وقفت على أبواب تسعين))

فهو من شدة الألم والجوى الذي هو فيه يحسب نفسه شيخاً كبيراً ناهزعلى التسعين من العمر يتوكأ على همومه وغربته التي أوقدت نار الشوق في فؤاده وهو ما يزال في بداية الستين من العمر، مؤكداً ألمه وأوجاعه التي ما برحت تفارقه ما دام بعيداً عن أهله ووطنه، فهو يعيش في آتون كالجمر يكوي الشاعر الغريب !!

أوجاع الشاعر رشدي العامل :

العامل واحد من هذا الرعيل الذي حط رحاله في الغربة وقضى جُل حياته فيها، تنقل منفياً بروحه الهائمة والمعذبة بين مصر الذي تأثر بنيلها وفاضت روحه فيه لما كتب عنه مقارناً إياه بنهري دجلة والفرات في بلده، وبين أسبانيا واتصاله بأدبائها وشعرائها إضافة إلى شعراء المهجر هناك، وبقي حتىَ آخر أيامه حيث توفي في منفاه غريباً عن أهله ووطنه، تعرض العامل إلى أوجاع الغربة مثلما تعرض غيره من الأدباء والشعراء الآخرين، وبقية الغربة ظاهرة مؤثرة في شعره، حيث يربط الشاعر أوجاعه التي قضت عليه بين فراق زوجته وأطفاله من جهة، وألمه الشديد على فراق وطنه وأحبته من جهة أخرى !

فهو يقلد السياب بغربته **ومخاطبته أهله وابنه** :

((متى ألقاك ..

قلت الليلة

تمتمت غداً ،

مر ربيع ..

مر صيف ،

وزاد المرقد برد الشتاء ،

لكنك لم تأت ،

قالوا لي إنك في خريف العمر رحلت !!))

ثم يرتحل الشاعر بحوار خيالي مع نفسه والطبيعة التي أصبحت رموزها مفتاح صـــوره المبدعة، ليؤكد تفاعله الدائم معها !

((قالت ماذا تفعل لو غبت الآن ،

فقال أحدق في كل نجوم الليل ،

وحين أشاهد أحلى نجمة صبح

تومض في الفجر ،

أراك !!))

هكذا تتولد الحرقة والشوق والحنين لتصهر جسد الشاعر وهو في غربته، يئن من أوجاعها السرمدية عليه بين أناس غرباء عنه في كل شيء، ويستعين هنا كلما أشتد به الوجع هذا بالليل ليعبر عن ذاته الحزينة الغريبة ويحس من خلالها بالخوف والقلق، وخاصة عندما ينتصف الليل ويسافر عن عينيه النوم، حيث ينتصب مناجياً ليله قائلاً:

((ينتصف الليل ..

يظل الجرس الأعمى مشلولاً ،

والخطوات تغيب عن الدرب !))

وقوله الآخر :

((كنت في الليل

أحصي على شفتيك القبل ،

عدت أحصي نجوم

السماء !))

وتكثر إشاراته عن الليل والنجوم والرموز الأخرى ليداري قلقه وخوفه ويخفف عن أوجاعه التي ما انفكت تقلقه في نومه ويقظته !!

الأوجاع عند الشاعر المتمرد على الظلم والطغيان أحمد مطر :

يتجلى شاعر الجنوب، شاعر غابات النخيل وفيض الماء بشط العرب، والطبيعة الساحرة، ليقف شامخاً، رافضاً لكل قيم التسلط والإرهاب وتنطلق نفسه المطمئنة بحقوق

شعبه الذي يرزح تحت أسواط الجلادين، ليرتفع صوته بتلك القصائد الخالدة التي أصبحت أناشيد يحفظها الناس عن ظهر قلب، هذه القصائد التي طرزها الشاعر المغترب (أحمد مطر) بالأنهار والجداول وبيوت الطين والقصب، والبساتين وأشجار النخيل !!

فيقول الشاعر عن بداياته ودخوله معترك السياسة الرافضة لحكم السلاطين المتهورين والمتهاونين بحقوق الشعب، ويصور لنا هذه الانتفاضة شعراً :

((حيث ولدتُ

ألفيت على مهدي قيداً ،

ختموه بوشم الحرية

وعبارات تفسيرية ،

يا عبد العزى ..

كن عبداً))

من هنا انطلقت في نفسه ثورة الرفض واستعرت في صدره الأفكار لتنقله إلى آتون مستعر في دائرة النار المتأججة من حوله :

((ألقيت نفسي مبكرا في دائرة النار ،

وعندما تكشفت لي

دائرة الصراع ،

بين السلطة والشعب ،

لم تطاوعني نفسي على الصمت ..

وارتداء ثياب العرس

في المآتم !))

وهكذا اشتد الحزن والألم في صدر الشاعر ليشارك شعبه في محنتهم، وما أشدها وأقساها من محن، غلفت شعب العراق بقماط الإرهاب والبطش بين كلاب لا تعرف معنى الرأفة والحرية !

ويتيه الشاعر في هذه الأجواء المرة التي تتأقلم في قصائده الرافضة، ويتمثل في شعبه المظلوم ويعبر عنه أنه مواطن بلا وطن، بلا أحلام، بلا آمال، بلا حاضر، بلا مستقبل فيقول :

((المرء في أوطاننا ..

معتقل في بلده منذ الصغر ،

وتحت كل قطرة من دمه

مختبئ كلب أثر،

بصماته لها صور ،

أحلامه لها صور ،

المرء في أوطاننا ليس سوى

أضبارة غلافها جلد بشر ،

أين المفر ؟

أوطاننا قيامة لا تحتوي

غير سقر ،

والمرء فيها مُذنب

وذنبه لا يغتفر !!))

بهذه الصور تتوقد النار في صدر الشاعر وينطلق يصف كل الحالات والمشاهدات التي تجيش في صدره وتقف أمامه، حيث تفتح باب سقر عليه !

يبكي من شدة المآسي والعذاب الذي يحسه **يكوي الضلوع** :

((لمن نشكو مآسينا ؟

ومن يصغي لشكوانا ويجدينا ،

أنشكو موتنا ذلاً لوالينا ؟

وهل الموت سيحيينا ؟

قطيع نحن والجزار راعينا ،

ومنفيون نمشي في أراضينا ،

ونحمل نعشنا قسراً بأيدينا،

فوالينا (أدام الله والينا)

رآنا أمة وسطاً ،

فما أبقى لنا دنيا

ولا أبقى لنا دينا !!))

وانطلق الشاعر مطر طيراً في آفاق الغربة يبحث عن مأوى وسكن يضمه هناك بعيداً عن أعين الرقيب الذي يتابع خطواته وصفناته وسكناته، بعيداً عن موطنه وأهله في قريته الرابضة على شط العرب (التنومة) منفياً، وكانت محطته الأولى في الغربة (الكويت) الذي عمل فيها محررا ثقافياً لجريدة (القبس)، وكان آنذاك في منتصف العشرينات من عمره، فكانت (القبس) الثغرة التي أخرج منها الشاعر رأسه ليطل على العالم، لما باركته واحتضنت قصائده الانتحارية بمساهمتها بنشر وتوثيق هذه القصائد الهادرة والمؤججة لنار الثورة، محرضاً شعبه في العراق للوقوف صفاً واحداً ضد قوى الظلم والاستهتار والتفرقة، وهنا لا يخفى على القارئ الكريم اتصال الشاعر بالكثير من الأدباء والشعراء والفنانين الذين وجد فيهم روحه التي تركها في العراق من جهة، والشعلة التي يشعل بها فتيل ثورته الشعرية من جهة أخرى !

يداعبه الشوق والفراق بصوره التي يصور لنا فيها تشرده من مكان إلى آخر وهو في بلده وحيال أعين الرقباء من كلاب السلطة، ليرى نفسه بلا مأوى ولا أصدقاء يأوي إليهم، فهو مطلوب بروحه وجسده إلى أزلام السلطة يريدون منه الصمت الأبدي، وهذا بعيد عن تفكير الشاعر، وما أبعده عليه :

((وطني حبيبي

لست أذكر من هواه سوى هواني ،

وطني الحبيب ..

كان لي منفى وما استكفى

وألقاني إلى منفى ،

ومن منفاي ثانية نفاني ،

وطني أنا حريتي ،

وليس التراب ولا المباني ،

أنا لا أدافع عن كيان حجارة ،

لكني أدافع عن كياني !))

ولم تقف أعين الرقباء ومقصاهم عن متابعة الشاعر وهو في بلده العراق، بل تابعته وهو في غربته بالكويت، وأوغرت صدور أهلها حقداً عليه، ومن ثم صدار قرار لإبعاده عن الأرض العربية لينكفئ مع بعض أصدقائه معه إلى خارج الكويت !

فكانت لندن المحطة الثانية التي يأوي الشاعر إليها ومنذ عام ١٩٨٦ استقر الشاعر فيها ليمضي سنينه منفياً بعيداً عن أهله ووطنه، فهو شاعر الغربة المتمرد على الظلم والطغيان والإرهاب، شاعر يرفض التهور والتسلط وشراء العقول بأبخس الأثمان الهزيلة، فكان صوته صرخة عالية مدوية في سماء الكون يسمعها العالم أجمع، ويضج لهولها !

ولطالما أغرته السلطات العربية ومنها العراق بلزوم الصمت والكف عن إيذاء السلطات وحكامها، لأن سماع هذه الصرخات يؤذي الحكام المتغطرسين، فيغدقوا عطاياهم لإسكات هذه الأصوات!

إلاَ أن الشاعر أحمد مطر لم تثنه هذه الممارسات الهزيلة وهذا الطلب، فكان رده أقوى من جبال العراق وأعلى من هامات نخيله، رفض الانحناء عند أعتاب القائد الضرورة لاستجداء مكارمه السخية التي همها إسكات أصوات الشعب المظلوم والرافض لحكمه المستبد !

((في بيتنا جذعٌ ..

حتى أيامه ،

وما انحنى ،

فيه أنا !!))

ويرفض الشاعر البطل انحنائه أمام خيارات القائد وأزلامه في العراق، ويقف معلناً بصوت عال فضْح كل ممارساتهم وأكلهم حقوق الشعب العراقي والبيع به في أسواق النخاسين الغربية والشرقية، وبناء القصور من جماجم شعبه، فهو يرى ما لا يراه غيره، يرى هذه المقابر الجماعية وهي تصرخ في صدره المحزون على شعبه، وتعوي به رياح الغربة ليشكو الأوضاع المزرية التي ألمت بشعبه من جراء فعل السلطة الغاشمة التي أوصلت العراق إلى هذا الدرك من الخمول والانعزال عن ركب العالم المتحضر، يئن من أسوار العراق التي بنيت على هياكل وأجساد هذا الشعب المظلوم :

((مدينة عظيمة ،

من فرط ما تحمل من

هياكل العظام ،

كان أسمها ولم يزل

مدينة السلام !!))

فالشاعر أحمد مطر شاعر الغربة وسفير القصيدة السياسية، شاعرٌ متهم بالحرية، ومريض القلم، يحلق على أسوار العراق مثل فراشات الصباح ليزين أجواءه بصور طلاسمه الخالدة :

((جس الطبيب خافقي وقال لي :

هل ها هنا الألم ؟

قلت له نعم ،

فشق بالمشرط جيب معطفي ..

وأخرج القلم !

هزَ الطبيب رأسه وابتسم ،

وقال لي : ليس سوى قلم ،

فقلت لا يا سيدي ..

هذا يد وفمْ ،

رصاصة ودم ،

وهمة سافرة ..

تمشي بلا قدم !!))

وهكذا بدأ الشاعر أوجاعه وأنينه على بلاده العراق و لم يزل يعاني هـــذه الأوجـــاع، تقضُ صدره وتقد نار الألم والوجع في غربته التي يبدو لي أنها ما زالت تنبأنا بمرارة التشرد والغربة وما آل إليها شعراؤنا وأدباؤنا وهم يعانون ألم الشوق وفـــراق بلـــدهم العـــراق وأهلهم، وإلى زمان لا ندري أبعيد هذا أم قريب !

أوجاع الغربة عند الشاعر يحيى السماوي :

وأوجاع الشعر لا تختلف من شاعر دون غيره إلا حسبما تمليه عليه ثقافته واطلاعـــه، فكثير منهم من كان همه الوحيد أن يكون فكره منشغلاً ومعلقاً بهموم مواطنيه والإنسان

بصورة عامة، وهذا ما لاحظناه في هذه الرحلة بين ثنايا أوجاع شعراء الغربة، فهذا شاعر الغربة، شاعر الجنوب يحيى السماوي كيف يؤنسن قصائده وصوره الشعرية بذات الإنسان الذي يراه مظلوماً ومنتهكة حقوقه وكيف للصوص أن تقيم إمبراطوريات على حســـاب الجياع في العالم ومنها العراق المظلوم، على شعبه ومرضاه ومعوزيه ومشرديه فيقول :

((أعرف تماماً أين يرقد (نيوتن)

وأين كان الحقل

لكن :

في أي تنور انتهت الشجرة ؟

وفي أي معدة استقرت التفاحة ؟))

فهو إذن منصرف لهموم الإنسان وما يعانيه من ظلم وانتهاك بحقوقه وراحته، فها هو يذهب يناغي الكادحين من الشعب ويسألهم أين ذهبت إنجازاتهم وأعمالهم وتعبهم فيقول:

((أعرف أن العبيد

هم الذين شيدوا..

الأهرام ..

سور الصين ..

جنائن بابل ..

ولكن

أين ذهب عرق جباههم ؟

وصراخهم تحت لسع السياط

أين أستقر ؟))

ثم يذهب السماوي في إرهاصاته ليصور لنا أوجاعه وآلامه حين يلتفت إلى آلام البشرية وعذاباتها وهي تئن تحت ظلم الحكام المتعسفين والإرهاب الذي يحصد الأرواح في كل يوم؛ في حين نرى السلاطين يعيشون منعمين لا يشعرون بما يعانيه غيرهم، فهاهو يقول في هذا المقطع من قصيدته التي يتمنى لو أن الإرهاب سبيل لنيل الحرية من سلاطين العصر المنبوذين لكان يبارك عملهم ولكنهم على العكس!:

((.. إن كان يستأصل محتلاً

وما يترك في مستنقع السلطة

من أذناب ،

إن كان يستأصل من بستاننا الضباع ..

والجراد والذئاب ،

وسارقي قوت الجماهير

وتجار الشعارات التي شوهت المحراب ،

إن كان يجتث الدراويش

المفخخين بالحقد ..

وساسة الدهاليز

الذين يعرضون بيتنا للبيع

خلف الباب ،

فإنني أبارك الإرهاب !!))

بهذه الصرخة التي تنطلق من صدر الشاعر والتي تؤلمه كثيراً يتمنى لو أن الإرهاب يكون وسيلة للخلاص من شر هذه النفايات التي سلطها الزمن على رقاب شعبه وأمته !!